

التجديد في الدرس الصوتي
عند مكّي بن أبي طالب القيسي
(ت ٤٣٧ هـ)

إعداد
الدكتور عبد القادر مرعي الخليل
قسم اللغة العربية
جامعة مؤتة

المقدمة

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن جوانب التجديد في الدرس الصوتي عند مكي بن أبي طالب القيسي في مجال المصطلح، والمنهج الصوتي، والنظام المقطعي للبنية العربية.

وقد دفعني إلى هذا البحث أنني لم أعثر على دراسة تناولت جهود مكي الصوتية، ولا سيما أنه جاء بمصطلحات صوتية لم يستعملها أحد قبله من علماء العربية الذين سبقوه كما أنه اتبع منهجا جديدا في دراسة الأصوات لم يستعمله أحد قبله، إذ أخرج هذا العلم من إطاره النظري إلى إطار وظيفي تعليمي وتطبيقي. فوظف علم الأصوات لخدمة القرآن والعربية، وأفرد لهذا العلم كتابا سماه: الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق التلاوة.

وقد تناولت في هذا البحث مصادر مكي في دراسته الصوتية إذ عرضت لأهم مصادره التي أفاد منها، كما تحدثت عن المصطلحات الصوتية التي ابتكرها. ثم تعرضت للمنهج الذي اتبعه في دراسة الأصوات، وبيّنت نوع هذا المنهج وخصائصه، وتحدثت عن النظام المقطعي للبنية العربية كما وصفه مكي بن أبي طالب القيسي.

كما أنني اتبعت المنهج الوصفي والمقارن، والتأريخي في هذا البحث، إذ كنت أصف مصطلحاته ومنهجه كما ذكر، ثم أقارن ما ذكره بما توصلت إليه الدراسات الصوتية الحديثة في هذا المجال. كما عدت إلى مظان اللغة عند علماء العربية القدماء الذين سبقوه أمثال: الخليل وسيبويه، والمبرد، وابن دريد، وابن جني لأبين ما أفاد منهم، وللكشف عن المصطلحات الجديدة التي ذكرها ولم يستخدمها هؤلاء الذين سبقوه.

مصادر مكي في دراسة الأصوات

قال مكي في مقدمة كتابه الرعاية : و ما علمت أن أحدا من المتقدمين سبقني إلى تأليف مثل هذا الكتاب ، ولا إلى جمع مثل ما جمعت فيه من صفات الحروف و ألقابها و معانيها ، ولا إلى ما اتبعت فيه كل حرف منها من ألفاظ كتاب الله تعالى ، والتنبيه على تجويد لفظه ، والتحفظ به عند تلاوته ولقد تصور في نفسي تأليف هذا الكتاب و ترتيبه من سنة تسعين وثلاثمائة ، و أخذت في نفسي بتعليق ما يخطر ببالي منه في ذلك الوقت ، ثم تركته إذ لم أجد معينا فيه من مؤلف سبقني بمثله قبلي ، ثم قوي الله النية وحدد البصيرة في إتمامه بعد نحو من ثلاثين سنة فسهل (الله تعالى) أمره ويسر جمعه ، وأعان على تأليفه ، وعسى أن يكون ذلك سببا لأجر و سلما لذخر ، جعله الله لوجهه خالصا (1).

إن ظاهر هذا الكلام يحتمل معنيين : أحدهما أن مكي يريد أنه لم يسبق بمؤلف جمع مثل ما جمع كتابه من حيث شموليته في دراسة الأصوات و صفاتها و معانيها و من حيث منهجيته في دراسة الأصوات دراسة وظيفية و ربطه بعلم التجويد ، فإن كان يريد هذا فهذا صحيح ، إذ لم يصل إلينا كتاب اعتنى بعلم الأصوات ، ودرسه دراسة وظيفية و ربطه بعلم التجويد قبل هذا الكتاب .

والمعنى الآخر أن مكي يريد أنه لم يعتمد على مصنفات الذين سبقوه في دراسته الصوتية ، وإن كان يريد هذا المعنى ، فقد نقضه هو نفسه ، وينقضه واقع الكتاب ، إذ نجد في ثنايا كتابه (الرعاية) إشارات إلى مصادر دراسته ، وإلى العلماء الذين أخذ منهم ، حيث يقول (رأيت شرح هذا و بيانه متفرقا في كتب المتقدمين و المتأخرين) (2) .

1- مكي بن أبي طالب القيسي (ت 437 هـ) الرعاية لتجويد القراءة و تحقيق لفظ التلاوة ، تحقيق أحمد

حسن فرحات ، دار عمار ، الأردن الطبعة الثانية ، 1984 م . ص 52 ، 53

2- مكي بن أبي طالب ، الرعاية ، 50 ، 51

وهذا يشير إلى أن مسائل كتابه أو بعضها كانت منشورة في مؤلفات من سبقوه ، فجمع شتاتها ورتبها وشرحها ، ووظفها في علم التجويد ، ولذلك يقول (قويت نيتي في تأليف هذا الكتاب وجمعه في تفسير الحروف و مخرجها ، و صفاتها و ألقابها ، و بيان قوياها و ضعيفها ، و اتصال بعضها ببعض ، و مناسبة بعضها لبعض و مباينة بعضها لبعض ، ليكون الوقوف على معرفة ذلك عبرة في لطف قدرة الله الكريم و عوننا لأهل تلاوة القرآن على تجويد ألفاظه و إحكام النطق به (3).

ومن أهم المصادر التي اعتمد عليها في دراسته : كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى 157 هـ و بخاصة مقدمة الكتاب التي وضع فيها أصول علم الأصوات ، إذا أشار أكثر من مرة في كتابه الرعاية إلى آراء صوتية اقتبسها عن الخليل ، ومنها : قال مكي : (قال الخليل في كتاب العين و الحروف الصم : التي ليس من الحلق (4)). وقال : (لقبها بذلك الخليل بن أحمد أول كتاب العين ، جعل ألقابها عشرة مشتقة من أسماء المواضع التي تخرج منها الحروف (5) . وقال : (الحروف الشجرية : وهي ثلاثة أحرف : الشين والضاد والجيم ، سماهن الخليل بذلك (6). وقال أيضا : (الحروف اللثوية وهي ثلاثة ، وهي الظاء والثاء و الذال سماهن الخليل بذلك (7) ، ومن مصادره أيضا : الكتاب لسيبويه المتوفى 180 هـ وبخاصة الجزء الرابع من الكتاب الذي يتحدث فيه عن مخارج الحروف و صفاتها ، إذا اعتمد اعتمادا كلياً على الكتاب لسيبويه في تحديد مخارج الحروف و صفاتها ، حيث قال : (اعلم أن سيبويه ، وأكثر النحويين يقولون : إن للحروف ستة عشر مخرجا (8). ومن

3- مكي بن أبي طالب ، الرعاية 51

4- مكي بن أبي طالب ، الرعاية ، 137

5- مكي بن أبي طالب ، الرعاية ، 138 ، 139

6- مكي بن أبي طالب ، الرعاية ، 139

7- مكي بن أبي طالب ، الرعاية ، 140

8- مكي بن أبي طالب ، الرعاية ، 243. وانظر : الكتاب لسيبويه تحقيق و شرح عبد السلام هارون ،

مكتبة الخانجي بمصر ، 1977 ، 4 / 433 436.

مصادره المقتضب للمبرد المتوفى سنة 285 هـ وبخاصة الجزء الأول من الكتاب الذي يتحدث فيه عن مخارج الحروف و صفاتها (9).

كما اعتمد مكي في دراسته على كتاب جمهرة اللغة لابن دريد ، المتوفى سنة 312 هـ ، وبخاصة مقدمة الكتاب التي يتحدث فيه عن الأصوات و صفاتها و مخارجها (10).

ومن مصادره أيضا كتب ابن جني المتوفى 392 هـ و بخاصة كتاب سر صناعة الإعراب .

كما ذكر أسماء علماء آخرين أفاد منهم مثل : الأخفش المتوفى سنة . 210 هـ و الأصمعي المتوفى سنة 213 هـ و الجرمي المتوفى 225 هـ وابن كيسان المتوفى سنة 299 هـ (11).

ومع هذا كله فلم يكن مكي مجرد ناقل لآراء الذين سبقوه ، بل كان يناقش هذه الآراء

ويضيف إليها ، ويعالجها معالجة جديدة بطريقة تختلف عن معالجة سابقيه ، كما أنه ابتكر مصطلحات جديدة لم يسبقه إليها أحد من علماء العربية القدماء ، ونهج منهجا جديدا في دراسة الأصوات تختلف عن منهج سابقيه ، ولذلك يمكن أن يعد مكي مجددا و مبدعا في الدراسات الصوتية من حيث المصطلح والمنهج و التشكيل المقطعي للبنية العربية .

التجديد في المصطلح الصوتي

لقد استعمل مكي مصطلحات صوتية استعملها علماء العربية القدماء الذين سبقوه ومن هذه المصطلحات: المخرج ، والحرف، والجهر ، والهمس ،

9- المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت 285) المقتضب ، تحقيق محمد عبد الخالق عظيمة ، عالم الكتب ، بيروت . 1 / 192-196

10- ابن دريد (ت 321 هـ) ، جمهرة اللغة ، تحقيق رمزي منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الأولى 1987 م . ح 1 / 41-47

11- انظر: الرعاية : ص: 69, 111, 112, 135, 136, 143

والشدة، والرخاوة، والتكرار، والانحراف وغيرها (12). ونجد هذه المصطلحات مبثوثة في كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، والكتاب لسيبويه وجمهرة اللغة لابن دريد، وسر صناعة الإعراب لابن جني. ثم ابتكر مصطلحات جديدة لم يسبقه إليها أحد من علماء العربية القدماء، ومن هذه المصطلحات ما يلي :

الحرف القوي :

وهو الحرف الذي يجمع أكثر من صفة من صفات القوة كالجهر والشدة والإطباق والاستعلاء والصفير، قال مكي: (والشدة من علامات قوة الحرف، فإن كان مع الشدة جهر وإطباق واستعلاء، فذلك غاية القوة في الحرف، لأن كل واحدة من هذه الصفات تدل على القوة في الحرف فإذا اجتمعت اثنتان من هذه الصفات في الحرف أو أكثر فهي غاية القوة كالطاء. فعلى قدر ما في الحرف من الصفات القوية كذلك قوته وعلى قدر ما فيه من الصفات الضعيفة كذلك ضعفه. فافهم هذا لتعطي كل حرف قراءتك حقه من القوة ولتتحفظ ببيان الضعيف في قراءتك فالجهر والشدة والصفير والإطباق والاستعلاء من علامات قوة الحرف(13). فمعيار قوة الحرف عنده تعتمد على اشتماله على أكثر من صفة من صفات القوة، وهي الصفات التي تحتاج إلى جهد كبير من المتكلم لتحقيقها ولنطق أصواتها، وذلك كما هو في الأصوات المجهورة والشديدة، والأصوات المطبقة والمستعلية وأصوات الصفير التي تحتاج إلى جهد عضلي من المتكلم لتحقيقها ونطقها أكثر من الجهد الذي تحتاجه نظائرها من الأصوات الضعيفة.

الحرف الضعيف:

لقد أطلق مكي هذا المصطلح على الحرف الذي يشتمل على أكثر من صفة من صفات الضعف كالهمس والرخاوة والانفتاح والاستفال، والخفاء، فقال :

12- مكي بن أبي طالب، الرعاية: ص 116، 117، 118، 119، 140، 141، 142

13- مكي بن أبي طالب، الرعاية، 117، 119

(وهذه الصفات من علامات الضعف كالهمس و الخفاء، فاعرف الصفات الضعيفة والصفات القوية ، تقو بذلك على تجويد لفظك بكتاب الله - جل جلاله- فإذا كان أحد الصفات الضعيفة في حرف كان فيه ضعف وإذا اجتمعت فيه ذلك كان أضعف له ، كالهاء التي هي مهموسة رخوة منفتحة خفية. وكل واحدة من هذه الصفات ، من صفات الضعف (14).

فمعيار الضعف في الصوت عنده تعتمد على اشتماله على أكثر من صفة من صفات الضعف، وهي الهمس و الرخاوة والخفاء ، إذ إن الجهد الذي يبذل في نطق الأصوات المهموسة والرخوة و الخفية، والمنفتحة أقل من الجهد الذي يبذل مع نظائرها من الأصوات المجهورة و الشديدة والمفخمة والتي يحدث تدخل أو اعتراض في مجرى الهواء أثناء نطقها ، وقد يكون هذا التدخل على شكل انحباس ، حيث يحبس هواء الصوت ثم يتبعه انفجار كما في الأصوات الشديدة أو الانفجارية ، ويتم هذا الانحباس في منطقة المخارج الصوتية التي تمتد من الحنجرة إلى الشفتين ، أو قد يحصل الاعتراض في منطقة الحنجرة فيتذبذب الوتران الصوتيان وذلك كما في الأصوات المجهورة (15). ولذلك يكون الجهد الذي يبذل في نطق هذه الأصوات التي يصاحبها انحباس أو اعتراض أكثر من الجهد الذي يبذل في نطق الأصوات التي لا يصاحبها انحباس كما في الأصوات الرخوة أو التي لا يصاحبها اعتراض في منطقة الحنجرة كما في الأصوات المهموسة .

الحروف المذبذبة:

لقد أطلق هذا المصطلح على الحروف التي لا تستقر على حال ، فتكون مرة أصلاً ، ومرة زوائد ، وهي عشرة أحرف يجمعها قولك : (سألتمونيها). فقال : (و إنما سميت بالمذبذبة، لأنها لا تستقر على حال، تقع مرة زوائد ، ومرة أصولاً و سائر الحروف غيرها لا تقع إلا أصلاً إلا الألف (16).

14- مكي بن أبي طالب ، الرعاية ، 119، 120

15- عبد الرحمن أيوب، أصوات اللغة ، الطبعة الثانية 177

16- مكي بن أبي طالب، الرعاية ، 121

أما علماء العربية الذين سبقوا مكيًا فقد أطلقوا مصطلح الحروف الزائدة على هذه الحروف. قال المبرد (هذا باب معرفة الزوائد و مواضعها ، وهي عشرة أحرف : الألف و الياء ، والواو ، والهمزة ، والتاء ، و النون ، والسين ، والهاء واللام ، والميم (17)).

وقال ابن جنى (وحروف الزيادة عشرة ، وهي الهمزة و الألف ، والياء ، و الواو ، والميم ، والنون ، والسين ، والتاء واللام والهاء (18)).
إذ إن مكي بن أبي طالب هو أول من أطلق على هذه الحروف مصطلح الحروف المذبذبة ، ولذلك فهو يعد مبتكرا لهذا المصطلح ولم يسبقه إليه أحد من علماء العربية القدماء .

الحرف الجرسى:

أطلق مكي هذا المصطلح على صوت الهمزة ، وذلك لأن الصوت يعلو عند النطق بها ، فقال : (الحرف الجرس وهو الهمزة ، سميت بذلك ، لأن الصوت يعلو بها عند النطق بها ، ولذلك استثقلت في الكلام فجاز فيها التحقيق ، والتخفيف والبدل ، والحذف وبين و إلقاء الحركة . والجرس في اللغة : الصوت فكأنه الحرف الصوتي أي المصوت به عند النطق (19)).

وعلى الرغم من أن جميع الأصوات العربية يصوت بها عند النطق إلا أن الهمزة هي أكثر الأصوات تصويتا ، وذلك لأن الجهد الذي يبذل في نطق هذا الصوت أكثر من أي جهد يبذل في نطق صوت آخر ، قال إبراهيم أنيس : (ولا شك أن انحباس الهواء عند المزمار انحباسا تاما ، ثم انفراج المزمار فجأة عملية تحتاج إلى جهد عضلي قد يزيد على ما يحتاج إليه أي صوت آخر ، مما يجعلنا نعد الهمزة أشق الأصوات (20)).

17- المبرد المقتضب، 1 / 56

18- ابن جنى، أبو الفتح، عثمان بن جنى (ت 392 هـ) ، سر صناعة الإعراب، تحقيق حسن الهنداوي، دار القلم ، دمشق الطبعة الأولى ، 1985. 1 / 62.

19- مكي بن أبي طالب، الرعاية ، 133

20- إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية المطبعة الانجلو مصرية ، الطبعة الخامسة ، 1979، 90.

الحرف المهتوف :

لقد أطلق مكي هذا المصطلح على صوت الهمزة كذلك ، لأنه يهتف بها ، ويصوت. قال مكي : (الحرف المهتوف هو الهمزة ، سميت بذلك لخروجها من الصدر كالتهوع فتحتاج إلى ظهور صوت قوي شديد ، والتهف : الصوت الشديد يقال : هتف به إذا صوت (21)).

أما الخليل فقد أطلق على الهمزة الصوت المهتوت ، والتهت يعني عنده عصر الصوت ، قال الخليل : (وأما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق مهتوتة مضغوطة ، فإذا رفّه عنها لانت، فصارت الياء و الواو و الألف عن غير طريقة الحروف الصحاح (22)).

و أما ابن جنّي فقد أطلق مصطلح الصوت المهتوت على صوت الهاء ، قال : (ومن الحروف المهتوتة وهو الهاء لما فيه من الضعف والخفاء (23)). إذ استعمل هذا المصطلح لدلالة غير الدلالة التي استعملها الخليل ومكي بن أبي طالب ، إذ يريد بهذه الصفة ضعف الصوت وليس قوته و شدته. والصحيح ما يراه الخليل ومكي ، إذ إن الهت و التهف يعني قوة الصوت قال ابن دريد : (وتهفت بالرجل أهتف هتفا و هتافا إذ صحت به ، وتهف الحمام هتفا إذ صوت (24)).

وقال أبو حيان الأندلسي : (والتهت عصر الصوت ، والتهت أيضا الحطم والكسر ، وبعضهم يقول فيها المهتوف بالفاء ، والتهف الصوت بقوة (25)).

فالمهتوف و المهتوت مصطلحان يدلان على صفة في صوت الهمزة ، وهي قوة هذا الصوت و شدته ، وذلك لأن الجهد الذي يبذل في نطق هذا الصوت أكبر من أي جهد يبذل في نطق صوت آخر من الأصوات العربية. وقد استخدم مكي

21- مكي بن أبي طالب ، الرعاية ، 137 ،

22- الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175 هـ) كتاب العين ، تحقيق مهدي الخزومي ، ابراهيم السامرائي ،

دار الرشيد ، بغداد ، 1981 ، 1/ 52

23- ابن جنّي، سر صناعة الإعراب، 1 / 64

24- ابن دريد ، جمهرة اللغة، 1 / 40.6

25- أبو حيان الأندلسي (ت 745 هـ) ارتشاف الضرب من لسان العرب ، تحقيق مصطفى أحمد النماس ،

الطبعة الأولى، 1984 ، 1 / 12

للدلالة على الهمزة مصطلحا آخر وهو : الحرف الجلد ، وذلك لبعده مخرجه و صعوبة نطقه (26).

الحرف الراجع :

أطلق مكي هذا المصطلح على صوتي الميم و النون الساكنتين ، لأنهما ترجعان في مخرجهما إلى الخياشيم ، فقال : (الحرف الراجع وهو الميم الساكنة ، سميت بذلك لأنها ترجع في مخرجها إلى الخياشيم لما فيها من الغنة ، ويجب أن يشاركها في هذا اللقب النون الساكنة لأنها ترجع أيضا إلى الخياشيم للغنة التي فيها (27)).

وتتفق الدراسات الصوتية الحديثة مع مكي في وصف هذين الصوتين إذ أن الهواء يحبس حبسا تاما في موضع من الفم عند نطق هذين الصوتين ، ثم يخفض الحنك اللين فيتمكن الهواء المصاحب للصوت من المرور عن طريق الأنف بسبب ما يعترضه من ضغط (28).

الحرف المتصل:

أطلق مكي هذا المصطلح على صوت الواو ، لأنها تهوي في مخرجها في الفم حتى تتصل بمخرج الألف ، فقال : (الحرف المتصل : وهو الواو ، وذلك لأنها تهوي في مخرجها في الفم، لما فيها من اللين حتى تتصل بمخرج الألف (29)). وقد استعمل الخليل مصطلح الأصوات الهوائية للدلالة على الواو و الألف و الياء و الهمزة ، فقال : (والياء ، والواو، والألف والهمزة هوائية في حيز واحد ، لأنها لا يتعلق بها شيء فنسب كل حرف إلى مدرجته و موضعه الذي يبدأ منه (30)).

26- مكي بن أبي طالب، الكشف عن وجوه القراءات السبع و عللها وحججها تحقيق محي الدين رمضان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، الطبعة الثانية، 1988 م / 1 / 46

27- مكي بن أبي طالب ، الرعاية ، 138 .

28- محمود السعمران ، علم اللغة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، من: 184-185

29- مكي بن أبي طالب ، الرعاية ، 138

فعلى الرغم من اختلاف مخارج هذه الأصوات إلا أنها لا يتعرض مجراها أي عائق عند النطق بها - باستثناء صوت الهمزة - ولذلك تهوي من الفم مع الهواء فتبدو للسامع أنها متصلة المخارج ، وهذا مما جعل مكي يعد صوت الواو صوتا متصلا.

الحرف المتفشي : أطلق مكي هذا المصطلح على حرف الشين ، وذلك لانتشار خروج الريح بين اللسان والحنك وانبساطه في الخروج عند النطق بها حتى اتصلت بمخرج الظاء ، وقد قيل في الشيا ، ومعنى التفشيى : هو كثرة انتشار خروج الريح بين اللسان والحنك وانبساطه في الخروج عند النطق بها (31). وتنسجم الدراسات الصوتية الحديثة مع تحديد مكي لهذا المصطلح ، إذ إن التفشي عند علماء اللغة المعاصرين يعني : أن يشغل اللسان أثناء النطق بالصوت مساحة أكبرما بين الغار واللثة ، وهو وصف صادق على الشين ، ولولا التفشي لصارت الشين سينا (32). إذ إن هواء الصوت عند النطق بصوت الشين ينتشربين الغار وبين اللثة وهذا ما يميز الشين عن السين في النطق.

الحرف المستطيل:

أطلق مكي هذا المصطلح على صوت الضاد ، لاستطالة مخرجها حتى اتصلت بمخرج اللام ، فقال: (الحرف المستطيل : وهو الضاد ، سُميت بذلك ، لأنها استطالت على الفم عند النطق بها ، حتى اتصلت بمخرج اللام ، وذلك بما اجتمع فيها من القوة بالجهر و الإطباق و الاستعلاء فقويت بذلك واستطالت في الخروج من مخرجها حتى اتصلت باللام لقرب مخرج اللام من مخرجها (33).

ويتفق تحديد علماء اللغة المعاصرين لهذا المصطلح مع تحديد مكي ، إذ أن الاستطالة عند المحدثين يقصد بها أن يستطيل مخرج الحرف حتى يتصل بمخرج آخر ، وذلك وصف ينطبق على الضاد القديمة الرخوة التي تخرج مما بين جانب

30- الخليل ، كتاب العين 1 / 58

31- مكي بن أبي طالب ، الرعاية ، 134 / 135

32- برتيل مالبرج ، علم الأصوات ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، مكتبة الشباب ، 1988 ، ص: 120.

33- مكي الرعاية ، 134.

اللسان وبين ما يليه من الأضراس ، سواء من يمين اللسان أو شماله ، أو من الجانبين و الأكثر من اليمين- هذا المخرج القديم للضاد كان يستطيل حتى يتصل بمخرج اللام الجانبية ، ولذلك وصفت بالاستطالة (34)).
أما الضاد الحديثة فقد تطور نطقها . فهي صوت لثوي أسناني شديد ، مفخم .

الحروف المستقلة:

أطلق مكي هذا المصطلح على الحروف التي يستغل اللسان عند النطق بها إلى قاع الفم ، وهي اثنان وعشرون حرفا ، وهي ما عدا الحروف المستعلية (الطاء، والظاء، والصاد، والضاد ، والغين، والحاء، والقاف). قال مكي: (الحروف المستقلة، وهي اثنان وعشرون حرفا وهي ما عدا الحروف المستعلية المذكورة ، وإنما سميت مستقلة لأن اللسان والصوت لا يستعلي عند النطق بها إلى الحنك كما يستعلي عند النطق بالحروف المستعلية المذكورة بل يستغل اللسان بها إلى قاع الفم عند النطق بها على هيئة مخارجها (35)).
أما سيبويه فقد أطلق على هذه الأصوات مصطلح الأصوات المنفتحة، فقال: (والمنفتحة كل ما سوى ذلك من الحروف، لأنك لا تطبق لشيء منهن لسانك ، ترفعه إلى الحنك الأعلى (36)).

وأطلق ابن جني على هذه الأصوات مصطلح الانخفاض والمنخفضة، فقال: (وللحروف انقسام آخر إلى الاستعلاء و الانخفاض، فالمستعلية سبعة وهي : الخاء ، والغين والقاف والضاد والطاء والصاد والظاء، وما عدا هذه

34- برتيل مالمبرج، علم الأصوات، 120.

35- مكي ، الرعاية، 123-124.

36- سيبويه . الكتاب ، 4/ 436.

الحروف فمنخفض (37).

وجميع هذ المصطلحات تدل على الأصوات نفسها والتي يستغل بها اللسان إلى قاع الفم عند النطق بها .

قال المبرج : (والاستعلاء نظير الاستفال ، وهو وضع اللسان يكون فيه أسفل في قاع الفم ، وذلك في بقية الأصوات المرفقة (38).

هذه هي المصطلحات التي يعد فيها مكي مبدعا ، أما ما عداها من مصطلحات و ألقاب صوتية فقد كان فيها مقلدا للخليل وسيبويه و المبرد وابن دريد وابن جني، إذ استعمل مصطلحاتهم نفسها وللدلالة نفسها .

التجديد في المنهج في دراسة الأصوات :

استعمل مكي بن أبي طالب منهجا جديدا في دراسة الأصوات يختلف عن المنهج الذي استعمله الذين سبقوه من علماء العربية القدماء أمثال الخليل وسيبويه والمبرد وابن دريد وابن جني إذا اعتمد هؤلاء المنهج النظري في دراسة الأصوات والذي يقوم على دراسة مخارج هذه الأصوات وبيان صفاتها بصورة مجردة دون أن يبين وظائفها و أهميتها في سلسلة الكلام وفي دراسة العلوم الأخرى.

أما مكي فقد درس الأصوات دراسة وظيفية وربطها بعلم التجويد لخدمة الدين وخدمة القرآن الكريم واللغة العربية ، ولكي ينتفع بها القارئ والمقرئ ولتكون عونا لأهل تلاوة القرآن على تجويد ألفاظه و إحكام النطق به ، فقال : (وإني كما رأيت هذه الحكمة البديعة و القدرة العظيمة في هذه الحروف التي نظمت ألفاظ كتاب الله - جل ذكره- و وقفت على تصرفها في مخارجها و ترتيبها عند خروج الصوت بها ، واختلاف صفاتها وكثرة ألقابها، ورأيت شرح هذا و بيانه متفرقا في كتب المتقدمين و المتأخرين ، وغير مشروح للطالبين

37- ابن جني ، سر صناعة الإعراب ، 1 / 62.

38- برتيل مالمبرج، علم الأصوات ، 118.

، قويت نيتي في تأليف هذا الكتاب و جمعه في تفسير الحروف و مخارجها و صفاتها و ألقابها ، و بيان قوتها و ضعفها ، و اتصال بعضها ببعض و مناسبة بعضها لبعض ، و مباينة بعضها لبعض ليكون الوقوف على معرفة ذلك عبرة في لطف قدرة الله الكريم ، و عوناً لأهل تلاوة القرآن على تجويد ألفاظه ، و إحكام النطق به و إعطاء كل حرف حقه من صفته ، و إخراجها من مخرجها باقياً ذلك على مرور الأزمان و تعاقب الأعصار ينتفع بها القارئ و المقرئ و المبتدي و المنتهي ، و يتذكر به أهل الفهم و الدراية ، و يتنبه به أهل الغفلة و الجهالة (39)).

إذ ربط مكي علم الأصوات بأفضل العلوم و أشرفها وهو قراءة القرآن و تجويده ، فبالأصوات نزل القرآن ، و بها يعرف التوحيد و يفهم ، و تفهم الفرائض و الأحكام ، فقال : (فهذه التسعة و العشرون الحروف المذكورة ، عظيمة القدر جليلة الخطر ، لأن بها أفهمنا الله كتبه كلها و بها يعرف التوحيد و يفهم ، و بها افتتح الله عامة السور ، و بها أقسم و بها نزلت أسماؤه و صفاته ، و بها قامت حجة الله على خلقه و بها تعقل الأشياء و تفهم الفرائض و الأحكام (40)). كما ذكر مكي أنه من الواجب على كل قارئ لكتاب الله عزوجل أن يعرف هذه الأصوات و طبائعها و صفاتها و مخارجها لكي يقرأ بها كتاب الله قراءة صحيحة و سليمة بعيدة من الخلل و الزلل و التقصير ، فقال : (فيجب على كل من قرأ بأي حرف كان من السبعة أن يأخذ نفسه بتحقيق اللفظ و تجويده ، و إعطائه حقه على ما نذكره من كل حرف في هذا الكتاب ، و يكون على تحفظ مما ننصُّ له فيسلم حينئذ من التقصير في لفظه ، و يؤمن من التحريف في قراءته و يجري في قراءته على أصل صحيح و لفظ فصيح فيكون الغالب على قراءته السلامة من الخلل ، و البعد من الزلل (41)).

كما لجأ مكي إلى المنهج التعليمي في دراسة الأصوات إذ كان يذكر كل

39- مكي بن أبي طالب ، الرعاية ، 50 - 51.

40- مكي بن أبي طالب ، الرعاية . 94.

41- مكي بن أبي طالب ، الرعاية ، 52.

حرف ومخرجه و صفتة بأسلوب سهل و واضح ، ثم يذكر مع كل حرف ألفاظا من كتاب الله تعالى ، مبينا الطريقة الصحيحة و السليمة في نطق هذا الصوت من خلال هذه الألفاظ و الآيات التي يستعملها . ومن أمثلة ذلك : قال في باب العين : (العين تخرج من أول المخرج الثاني من مخارج الحلق الثلاثة ، مما يلي الفم ، وقد ذكرنا أنها من الحروف المجهورة الرخوة ، ويقال أن فيها بعض الشدة فهي حرف قوي والعين مؤاخية للهمزة ، والعرب تبدل من الهمزة عينا ، ومن العين همزة ويقولون : في أديت فلان على فلان ، وأديته ، وموت ذؤاف ، وذعاف ، وأردت أن تفعل ، وعن تفعل .

فيجب على القارئ أن يحفظ بلفظ العين و يعطيها حقها من الحلق، فإن تكررت كان بيان ذلك أكد ، لقوتها و صعوبتها على اللسان، نحو قوله تعالى : (أن تقع على الأرض) و (ينزع عنهما) ، و (فزع عن قلوبهم) و (تطلع على القوم) ، (نطبع على قلوبهم) و شبه ذلك .

وذلك البيان لهما لازم ، والتحفظ بإظهارهما واجب لصعوبة اللفظ بحرف الحلق منفردا ، فإذا تكررت كان أصعب ، لأن اللفظ بالحرف المكرر كمشي المقيد ، وكمن يرفع رجله ليمشي فيردها إلى الوضع الذي رفعها منه وذلك ثقيل . وإذا وقع بعد العين الساكنة غين و جب بيان ذلك لقرب المخرجين ، ولأن اللفظ يبادر إلى إدغام العين في الغين ، ولأنهما من الحلق جميعا ، وذلك نحو قوله تعالى : (واسمع غير مسمع) ، وإذا سكنت العين وأتت بعدها هاء و جب التحفظ بإظهار العين لئلا تقرب من لفظ الحاء ، وتندغم في الهاء فتصير كأنها حاء مشددة ، كما قالوا في : (معهم) : (محهم) فأبدلوا من العين حاء ، وأدغموا الهاء فيها على إدغام الثاني في الأول ، لأن الحاء مؤاخية للهاء في الهمس و مخرجهما متقاربان وذلك نحو قوله : (ألم أعهد إليكم) و (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها) و (فبايعهن) و (كلا لا تطعه) لتحفظ في هذه وشبهه بإظهار العين وإخراجها من مخرجها واجب (42).

وهكذا فعل مكي في جميع حروف العربية إذ كان يأخذ كل حرف و يبين مخرجه و صفته والطريقة الأمثل في نطقه من خلال السلسلة الكلامية التي يرد فيها، وبهذا يكون قد أخرج علم الأصوات العربي من إطاره النظري إلى إطار وظيفي تعليمي تطبيقي ، وقد وضع المنهج الذي اتبعه بقوله : (فاذكر الحروف واحدا بعد واحد على رتبة المخرج ، مع جملة من صفته ، ثم نذكر مع كل حرف ألفاظا من كتاب الله تعالى -جل ذكره- تنبه على تجويد لفظ ذلك الحرف فيها ، وفي مثلها مما وقع ذلك الحرف فيها ، مقارنا لغيره ، ويجب أن يتحفظ ببيانه لئلا يدخله خلل أو نقص أو زيادة لعل تحدث فيه (43).

ويمكن أن يمثل المنهج الذي اتبعه مكي في دراسة الأصوات و تعلمها ، ونطقها نطقا صحيحا من خلال الألفاظ و التراكيب التي ذكرها منهاجاً و أسلوباً لمعالجة عيوب النطق وذلك عن طريق تقليد المتعلمين أو المتدربين للمقرئ في نطق الأصوات نطقا سليما ، ثم تكرير النطق حتى يستقيم نطق المتعلم لذلك الصوت ، وهذا هو ما تعمل به المختبرات الصوتية الحديثة في معالجة عيوب النطق و أمراض الكلام، حيث يقوم المدرب بنطق الصوت أمام الشخص المعالج نطقا صحيحا عدة مرات ، ثم يأتي بالألفاظ وجملة تتضمن نفس الصوت ، ويكررها أمامه ، ويطلب منه إعادة نطق الكلمات عدة مرات ، حتى يستقيم له النطق (44).

ولذلك عد كتابه (الرعاية) إماما يجب أن يؤتم به في تجويد ألفاظ القرآن و تحقيق تلاوته ، فقال : (فمن ائتم بكتابي هذا في تجويد ألفاظه و تحقيق تلاوته ، ممن سلم من اللحن و الخطأ ، وضبط روايته التي يقرأ بها ، قام له هذا الكتاب على تقادم الأعصار و مرور الأزمان مقام المقرئ الناقد البصير الماهر التحرير (45). كما يمكن أن يشكل هذا المنهج أسلوبا لتعليم اللغة لغير الناطقين بها وذلك عن طريق السماع و التقليد و التكرير إذ يقوم ، الطلبة المتدربون بالسماع إلى المدرس وهو ينطق الأصوات و الألفاظ والتراكيب نطقا صحيحا ثم

43- مكي بن أبي طالب ، الرعاية ، 51

44- أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب ، القاهرة ، ط2، 1987، ص354

45- مكي بن أبي طالب، الرعاية ، 53

يقلدون نطق ما يسمعونه و يكررون النطق عدة مرات حتى يستقيم لهم النطق الصحيح لهذه الزصوات و الألفاظ .

و خلاصة القول أنه يمكن أن يعد منهج مكي في دراسة الأصوات منهجا متطورا بالنسبة لسابقه و معاصريه في دراسة الأصوات ، إذ أخرج هذا العلم من إطاره النظري إلى إطار وظيفي تعليمي و تطبيقي وهو ما تركز عليه الدراسات الصوتية الحديثة في مناهجها الصوتية .

التشكيل المقطعي للبنية العربية :

عالج مكي بن أبي طالب هذه المسألة تحت باب ما تضمنه تأليف الكلام و علله (46). و بين فيه أن كلام العرب كله يتألف من أربعة أشياء :

1- حرف متحرك

2- حرف متحرك + حرف مد + حرف ساكن

3- حرف متحرك + حرف ساكن + حرف ساكن

4- حرف متحرك + حرف ساكن + حرف ساكن

و النوعان الأخيران لا يقعان في العربية إلا في حالة الوقف .

كما بين في هذا الباب أن كلام العرب لا يبدأ بساكن ، ولا يجتمع فيه أكثر من ثلاثة حروف متحركة متصلة. و ينسجم هذا القول مع الدراسات اللغوية الحديثة في دراسة المقطع الصوتي للبنية العربية ، حيث تشير هذه الدراسات إلى أنه يوجد خمسة أشكال من المقاطع في اللغة العربية، ثلاثة منها تستعمل في حالة الوصل وهي :

1- المقطع القصير المفتوح ، وهو الذي يتكون من : صوت صامت و حركة

قصيرة ، مثل: ب ، ب ، ب .

2- المقطع الطويل المفتوح ، وهو الذي يتكون من : صوت صامت و حركة

طويلة ، مثل: با ، بو ، بي .

3- المقطع الطويل المقفل ، وهو الذي يتكون من : صوت صامت + حركة

طويلة + صوت صامت ، مثل : باب .

أما المقطعان الرابع و الخامس فيستعملان في حالة الوقف فقط وهما :

1- المقطع المديد المقفل بصامت ، ويتكون من صوت صامت + حركة قصيرة

+ صامت ، مثل : عن ، ومن .

2- المقطع المديد المقفل بصامتين ، ويتكون من : صوت صامت + حركة

قصيرة + صوت صامت + صوت صامت ، مثل : بنت (47).

ويفهم من كلام مكي في الباب نفسه أنه لا يوجد في العربية كلمة تتكون

في حالة الوقف من أربعة مقاطع صوتية ، وقد تصل إلى خمسة مقاطع في حالة

الوصل ، حيث قال : «لأنك لا تبتيء» إلا بمتحرك وقد يتصل به حرف آخر

متحرك ، ولا يجوز أن يبتدأ بساكن ، ، ولا أن يتصل ساكن بساكن أبدا إلا أن

يكون الحرف الأول حرف مدّ ولين، أو يكون الثاني سَكَن للوقف (48).

وهذا القول ينسجم مع الدراسات اللغوية الحديثة ، يقول أحمد مختار

عمر : « لا توجد كلمة في اللغة العربية تحوي أكثر من أربعة مقاطع إلا ما جاء

على وزن : فعوللان، و يتفاعل، فكل منهما في حالة الوصل يحتوي على خمسة

مقاطع ، وتنقص إلى أربعة في حالة الوقف (49).

فمكي بن أبي طالب كان عنده تصور واضح للتشكيل الصوتي لبنية

الكلمة العربية و كيفية هذا التشكيل ، ولكنه استعمل تعبير الحرف المتحرك

والحرف المتحرك المتلو بحرف ساكن ، والحرف المتحرك المتلو بحرفين ساكنين

للدلالة على المقطع الصوتي ، حيث لم يكن هذا المصطلح معروفا لدى

علماء العربية القداماء إلا عند الفارابي ، حيث ذكر في كتابه

47- برتيل مالبرج ، علم الأصوات ، تعريب عبد الصبور شاهين ، مكتبة الشباب، القاهرة 1982، ص :

48- مكي بن أبي طالب ، الرعاية 97.

49- أحمد المختار عمر ، دراسة الصوت اللغوي ، 261.

(الموسيقى الكبير) هذا المصطلح، وعرفه بقوله : « وكل حرف غير مصوت يقصد به الصوامت أتبع بمصوت قصير به فإنه يسمى المقطع القصير ، والعرب يسمونه الحرف المتحرك من قبل أنهم يسمون المصوتات القصيرة حركات ، وكل حرف لم يتبع بصوت أصلا وهو يمكن أن يقرن له ، فإنهم يسمونه (الحرف الساكن) وكل حرف غير مصوت قرن به مصوت طويل فإننا نسميه المقطع الطويل (50).

وخلاصة القول يمكننا أن نعد مكي بن أبي طالب مجددا في الدرس الصوتي بالنسبة لسابقه و معاصريه من علماء اللغة من حيث التجديد في المصطلح الصوتي ، والتجديد في المنهج في دراسة الأصوات ، ودراسة التشكيل المقطعي لبنية الكلمة العربية .

50- الفارابي ، أبو نصر الفارابي (ت 380هـ) ، الموسيقى الكبير ، تحقيق: غطاسة عبد الله خشبة، دار الكتاب العربي ، القاهرة . 9 ، 10 .

المراجع

- 1- ابراهيم، أنيس، الأصوات اللغوية، المطبعة الانجلو مصرية ، القاهرة الطبعة الخامسة. 1979م.
- 2- ابن جني، أبو الفتح ، عثمان بن جنني (ت 392 هـ) ، سر صناعة الإعراب، تحقيق حسن هنداوي، دار القلم، دمشق الطبعة الأولى ، 1985م.
- 3- ابن دريد (ت 221 هـ) جمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت الطبعة الأولى، 1985 م.
- 4- أبو حيان الأندلسي (ت 745 هـ) ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق: مصطفى أحمد النماس، الطبعة الأولى ، 1984م.
- 5- أحمد مختار ، دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب ، القاهرة، ط3، 1987م.
- 6- برتيل مالبرج ، علم الأصوات ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، مكتبة الشباب ، القاهرة 1988م.
- 7- الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175 هـ) كتاب العين ، تحقيق مهدي المخزومي، ابراهيم السامرائي، دار الرشيد، بغداد، 1981 م.
- 8- سيبويه، أبو بشر، عثمان بن قنبر (ت 180هـ) تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بمصر، 1977م.
- 9- عبد الرحمن أيوب، أصوات اللغة ، الطبعة الثانية ، 1986م.
- 10- الفارابي ، أبو نصر (ت 385هـ) الموسيقى الكبير، تحقيق غطاسة عبد الملك خشبة ، دار الكتاب العربي، القاهرة.
- 11- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت 285 هـ) المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت .
- 12- محمود السعران ، علم اللغة، الفكر العربي ، القاهرة .
- 13- مكسي بن أبي طالب القيسي (ت 437 هـ) الرعاية لتجويد القراءة و تحقيق : لفظ التلاوة ، تحقيق أحمد حسن فرحات، دار عمار ، الأردن الطبعة الثانية 1984 م.
- 14- مكسي بن أبي طالب القيسي الكشف للقراءات السبع و عللها و حججها، تحقيق محي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، بيروت ، الطبعة الثانية 1988م.